اللغة العربية: مرونتها وقدرتها على الأداء

أحمد غرس الله، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر

❖❖❖❖❖

Abstract

This article is a defence of Arabic in terms of flexibility, accuracy, efficiency, eloquence and richness in four main areas: phonology, lexis, syntax, and declension. It aims to reveal the capacity of Arabic for expression and communication of meaning, and the hidden communicative energy in the afore mentioned areas. The article also shows that Arabic is still able to regain the privileged position of language of learning which it enjoyed at the height of the Arab-Islamic should its speakers and users provide the appropriate atmosphere for such a revival.

ملخص

يعد هذا، محاولة جادة لردّ الشبهة عن اللغة العربية؛ شبهة العجز والجمود والتخلف التي حاول أن يلصقها بها، ومازال يحاول، كثير من أبناء العرب. فعرض البحث للغة العربية في مستوياتها الأربعة: الصوتي، المعجمي، الصرفي، والتركيبي، مبرزًا ما تتمتع به العربية، في هذه المستويات، من قدرات هائلة على التعبير عن المعاني ونقل الدلالات. كما أشار البحث إلى طاقات إبلاغية كامنة في المستويات الأربعة المشار إليها. وأثبت أن اللغة العربية ما تزال قادرة على استعادة مكانتها المرموقة التي كانت لها في العصور الزاهية للحضارة العربية الإسلامية. وأنها قادرة على استيعاب الحضارة المادية المعاصرة، إذا وفر لها أبناؤها أسباب الانبعاث؛ بانْبعاثهم من مرقدهم جادين في ميادين الحياة، مثل غيرهم من الأمم المتطورة.

❖❖❖❖❖

لعل خير ما أبدأ به،كلام لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ـــ رحمه الله ـــ فقد قرأت له يوما في أحد مؤلفاته كلاما، معناه أن اللغة العربية حية مرنة متطورة، يتكلم بها ـــ **مع** الأسف الشديد ـــ **أناس مازالوا في حاجة إلى** حياة، ومازالوا في حاجة إلى مرونة، ومازالوا **في حاجة إلى تطور.**

إن الذين يتكلمون اللغة العربية اليوم، هم أبناء الشعوب العربية المنتشرة على هذه الرقعة الجغرافية المترامية الأطراف، من الخليج العربي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا. وهؤلاء هم الناطقون بالعربية، وهم أصحابها، في زماننا. ولا شك أن الدكتور "طه حسين" لم يكن يعني غيرهم بما ذكرت له قبل قليل.

فعلا لقد كانت العربية حية **مرنة متطورة،** كما وصفها الدكتور طه حسين، أيام كان العرب عربًا، وكانت الحضارة العربية الإسلامية في مقدمة الحضارات العالمية. أما حالها، في هذا **العصر البائس** ـــ بالنسبة إلى الشعوب العربية ـــ فلم يعد كما كان، وصارت تتهم بالعجز عن مسايرة العصر، وتتهم بالجمود وعدم **القدرة على** استيعاب التطور العلمي والانفجار التكنولوجي، وتتهم بالتخلف عن ركب الحضارة المادية الحديثة في جميع الميادين. وصارت تحاصرها هذه الاتهامات في كل آن وفي كل مكان. حتى صار طلاب اللغة العربية في الجامعات يستحون أن يصرحوا

باختصاصهم، ويحتقرون أنفسهم أمام زملائهم في الأقسام الأخرى؛ لأنهم صاروا يرون بأعينهم في الواقع ألوان الإهانة التي تتلقاها العربية، وأشكال الاحتقار والنيل من قدرها في كل يوم.

وإذا كانت اللغة العربية قد لقيت أصناف الاطهاد، وعانت من شتى صور القهر من قبل الاستعمار الأجنبي الغاشم، في القرنين الماضيين، في كثير من أقطار الوطن العربي، فذلك كله ليس غريبًا ولا عجيبا. إذ أن الهدف الأول للمستعمِر هو القضاء على لغة المستعمرين، لقطع علاقتهم بتاريخهم وحضارتهم ليسهل عليه التمكن منهم.

لكن حُقَن المضادات الحيوية التي تلقاها كيان المستعمر من مدافع المجاهدين **الأبطال** ورشاشاتهم، في كثير من الأقطار العربية التي **خضعت للاستعمار، لم تقض** ـــ مع الأسف الشديد ـــ **على كل رواسب السموم التي ترسبت في جسد الأمة** العربية في تلك الأقطار. وهذا ما يفسر استمرار معاناة اللغة العربية في كثير جدا من أنحاء البلاد العربية الواسعة. نسأل الله **تعالى أن** يرزقها أبناء بررة، وحماة أقوياء، يخلصونها من محنتها، ويردون لها مجدها الضائع.

في الحقيقة إن اللغة العربية لا يتهمها بالعجز إلا عاجز، ولا يتهمها بالجمود إلا من بفكره جمود يقيده، ويحول دون انطلاقه انطلاق **الف**كر السليم في أجواء العلم النزيه والمع**رفة** الحقة. ولا يتهمها بالتخلف إلا من بعقله إعاقة ذهنية تحول بينه وبين الإدراك الحقيقي للعلاقة بين الأسباب والنتائج لفهم طبائع الأشياء فهما صحيحا. أقول هذا لأن العربية، إن كانت قد سُجّل عليها تخلف في الجانب العلمي والتكنولوجي، فما ذلك إلا نتيجة حتمية لأسباب مَلموسة، يعرفها

أولو الألباب دون من رضوا أن يكونوا للمستعمر أذنابا. وسيأتي بيان هذا إن شاء الله في موضعه من البحث.

والغريب في الأمر أن اللغة العربية حالها اليوم كأمٍّ منكودٍ حظّها؛ شقيت في رعاية أبنائها، حتى إذا اشتد عودهم وشبوا انقلبوا عليها، فما انفكت معهم من شقاء إلى شقاء. فبليتها ـــ في العصر الحديث ـــ لم يُبتَلَ بها غيرها من لغات العالم؛ إذ صارت تجد أعداءها من أبنائها لأسباب كثيرة، أشرت إليها إشارة مجملة قبل قليل، أما تفصيل القول فيها فلا أريد الخوض فيه خشية الإطالة. وأكتفي بالقول إنه لا يعادي العربية، من أبنائها، إلا جاهل بها، أو ضعيف شخصية ينقاد بسهولة، أو أحمق متنصل من أصله، مثله كمثل الغراب والحمامة.

إن الذين يرمون لغتهم بالوهن والجمود، من أبناء العرب في هذا العصر، هم أولئك الذين لعبت نشوة الحضارة الغربية بعقولهم فأفقدتهم وعيهم. فصاروا يحمّلون لغتهم مسؤولياتهم، ويؤاخذونها بما هو في الحقيقة نتيجة لتقصيرهم في حق أنفسهم؛ بنبذهم العلم وراء ظهورهم، وإعراضهم عن العمل، وتركهم الأخذ بأسباب العيش الكريم، وولعهم بالتطلع إلى ما في أيدي غيرهم.

فهؤلاء أناس يريدون أن يعكسوا طبائع الأشياء؛ إذ يطلبون من لغتهم أن تكون راقية مزدهرة، وهم أبعد ما يكون عن أسباب الرقي والازدهار. فما اللغة في الواقع إلا سجل كبير يُقيد فيه نشاط الأمة. فالأمة الحية العاملة لابد أن يظهر ذلك كله في لغتها. أما الأمة الخاملة المقصرة فلا بد أن تخلو لغتها من كل أثر للحياة الحقة التي تقوم على العلم الذي أمرنا

به الله عز وجل، في قوله: "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"[1] ولو أننا عملنا بمضمون هذه الآية الشريفة لما كان هذا حالنا اليوم، وما كان هذا حال لغتنا، فلو كانت العربية تتكلم كما نتكلم لخاطبت أباءها قائلة: رَمَتْنِي بِدَائِهَا وانْسَلَّتَ. وهذا مثل عربي يضرب لمن يعيِّر غيره بعيب فيه هو. نعيِّرها بالعجز والجمود، وهما من صفات الشعوب العربية اليوم. لعلي أطلت في هذا، أتركه الآن على أن أعود إليه في آخر البحث، في مزيد من التوضيح، لأن الكلام فيه يطول، يحتاج ربما إلى بحث مستقل.

اللغة العربية لغة كغيرها من لغات العالم، بل هي لغة حية مرنة قادرة على الاستجابة لمقتضيات الحياة المعاصرة، وقادرة على استيعاب جميع العلوم والفنون، لو أننا أفقنا من سباتنا وكسرنا قيد الجمود الذي كبلنا به أنفسنا حينا من الدهر. وأنا لا ألقي الكلام مجردا، بل أتحدث بالحجة والدليل، فتتبع ما أقول.

إن للعربية ميزات عديدة، قلما توجد في غيرها؛ هي سرّ طاقات تعبيرية هائلة، لو وجدت العناية الكافية من أبناء العرب للانتفاع بما في لغتهم والرقي بها إلى المستوى اللائق بها. وتلك الطاقات كامنة في جميع مستوياتها؛ يعلمها ذوو الاختصاص، العارفون بأسرارها. أكتفي في هذا المقام بعرض نماذج منها مرتبة حسب مستويات اللغة المختلفة.

1. في المستوى الصوتي

إن المتأمل في هذا الجانب من اللغة العربية، لا شك، يضع يده على حقيقة جلية؛ تتمثل في اشتمال العربية على كل الوحدات اللغوية الدنيا التي ينتج من تأليف بعضها مع بعض لبنات اللغة. وهي الألفاظ المفردة التي تتكون منها الجمل والتراكيب، القاعدة الأساسية للكلام؛ إذ بها نتكلم، وبها يتم نقل المعاني والأفكار، وبها يتحقق التواصل بين الأفراد والمجتمعات.

تتوفر اللغة العربية على جميع الأصوات الموجودة في اللغات المعروفة الآن. وهي موزعة على جميع مدارج جهاز النطق توزيعا محكما، من أقصى موضع فيه وهي الحنجرة إلى أدنى موضع وهو الشفتان. وأسجل في هذا السياق التفاتة لطيفة أعجبتني، للدكتور "كمال بشر"، ذكر " أن اللغة العربية استخدمت جهاز النطق عند الإنسان خير استخدام وأعدله. فقد جاءت أصوات هذه اللغة موزعة على مدارج النطق توزيعا شاملا لكل نقاطه ومواضعه. فمن بداية هذا الجهاز ـــ ونعني بذلك الحنجرة ـــ جاءت الهمزة والهاء، ومن نِهايته ـــ وتتمثل في الشفتين ـــ جاءت الباء والميم. ومن بين هاتين المدرجتين خرجت بقية الأصوات العربية مندرجة في شبه سلسلة متصلة الحلقات، بحيث لا يقع ازدحام في منطقة أو مناطق، ولا يحدث إهمال لبعضها."[2] وهذه ميزة هامة، تتيح للناطقين بها أداء الأصوات المعروفة في اللغات البشرية خير أداء لتركيب الكلمات والجمل عند إرادة التعبير عن أغراضهم بسهولة ويُسر.

ومن الخواص الصوتية للغة العربية اشتراك بعضها في المخرج مع اختلاف في الصفات اختلافا يميز بعضها من بعض، ويجعل كلّاً منهما قائما

برأسه، يتمتع بدور دلالي له أثره البالغ في الوظيفة الدلالية للكلمة.

فالصوتان الهمزة والهاء، وإن جمعهما المخرجُ الذي يشتركان فيه وهو الحنجرة، تفرقهما بعض صفاتهما؛ إذ إن الهمزة صوت انفجاري شديد، والهاء احتكاكي،[3] وهذا الاختلاف يؤثر في وظيفتهما الدلالية، فإذا أدخلناهما الآن في تركيب كلمتين متفقتين في المادة الصوتية، لاحظنا بسهولة أثر كل منهما في معنى الكلمة. وذلك نحو: آبَ، وهَابَ. فالكلمتان تشتركان في الألف والباء، لكن دخول الهمزة في الأولى والهاء في الثانية أدى إلى اختلاف المعنى بينهما، كما هو واضح. ومثل هذا يقال عن الطاء والتاء المتفقتين في المخرج وفي بعض الصفات، كالانفجار والهمس، إلا أن استقلال الطاء بالتفخيم دون التاء يجعلها تؤدي وظيفة لغوية مخالفة للتاء في الكلمتين طَابَ، وتَابَ؛ حيث يعزا اختلاف معناهما إلى وجود الطاء في الأولى والتاء في الثانية.[4]

وهذا كله يدل على وجود طاقة تعبيرية كامنة في أصوات العربية تهيء للناطقين بها مرونة في التعبير، وسهولة في نقل المعاني والأفكار في عملية التواصل.

والجدير بالذكر في هذا السياق هو وجود أصوات في اللغة العربية قلما يوجد في غيرها، كهمزة القطع التي هي عبارة عن وحدة صوتية متميزة تؤدي وظيفة لغوية تتمثل في دورها الدلالي في الكلمة، أما الهمزة الموجودة في اللغات الأوروبية فيرى الدكتور "كال بشر" أنها ليست وحدة صوتية ذات كيان مستقل، يدخل في التفريق بين المعاني، بل هي عنده نوع من

التهميز؛ أي هي منح النطق سمة من سمات الهمزة لا غير.

ونذكر صوت العين الذي لا وجود له في كل اللغات الأوروبية، لذلك يعسر عليهم جدا نطق الكلمات العربية التي فيها العين، فيعمدون إلى استبداله بوحدة صوتية أخرى هي الهمزة، وشتان ما بين الصوتين، وقد حاول بعض الغربيين تسمية اللغة العربية بلغة العين لهذا السبب. وذلك لا يصح لوجود هذا الصوت أيضا في اللغات السامية، التي تنتمي إليها العربية.

ولعل أهم صوت تتميز به اللغة العربية حقا، هو "الضاد" "بوصفه وحدة صوتية ذات قيمة وظيفية في تركيب الكلمة ودلالتها، ليس له وجود على الإطلاق في أية لغة معروفة لنا على وجه الأرض".[5]

بعد هذه الوقفة القصيرة أشير إلى أنه إذا كانت الأصوات هي الوحدات اللغوية الدنيا التي تتألف منها اللبنات الأساسية للكلام، وهي **الألفاظ المفردة التي تدخل في بناء الجمل** والتراكيب، فإن اللغة العربية لم تظلم شيئا في هذا الجانب. فقد حازت حصتها وافية، بل امتازت بأصوات؛ تفردت ببعض منها، وندر وجود بعض في غيرها. وهذا يعني أن العربية مزودة بأدوات دلالية، هي عبارة عن طاقة تعبيرية، **كشحنة خا**مدة تحتاج إلى من يحركها لتفعيلها.

2. في المستوى المعجمي

أما في هذا الجانب فالعربية تمتاز بسمة قلما توفرت لغيرها؛ إن لها ثروة هائلة تتمثل في غزارة مفرداتها اللغوية، التي قيد العلماء منها عشرات الآلاف في معاجمهم. فاللغة العربية

تفوق ـــ في هذا الجانب ـــ أخواتها الساميات، وغير الساميات أيضا.

قال الدكتور علي عبد الواحد وافي: "قد تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال... ما لم يتجمع مثله للغة سامية أخرى، بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم."[6] ومصداق قوله هذا أننا نجد للأسد في العربية مئات الأسماء، وللسيف حوالي ألف اسم، وللجمل وما يتصل به ما يزيد على خمسة آلاف اسم، وللداهية مئات الأسماء، وللثعابين وأنواع الزواحف، لكل منها عشرات الأسماء، أو ما يزيد على المائة اسم.

كذلك يقف الدارس في هذا المجال على العشرات من الأسماء المتعلقة بكل من أوصاف الإنسان المادية والمعنوية، كالأبيض والأسود، والطويل والقصير، والضخم والهزيل، والكريم والبخيل، والشجاع والجبان. لمن أراد الوقوف على هذا أن يطلبه في كتاب "الإفصاح في فقه اللغة"، فإنه واجد فيه مادة غزيرة تبهره.[7] وهذا كله يدل على شيئين: أحدهما طاقة استيعاب اللغة العربية اللامحدودة، والآخر براعة أصحابها ـــ في عهد الفصاحة وصفاء السليقة ـــ في توظيف لغتهم أحسن توظيف، والتحكم في ذلك لآداء ضروب المعاني، ونقل أنواع الدلالات.

على أن ثراء العربية، في هذا الجانب يتجلى أكثر في ثلاثة مظاهر، وذلك من خلال سلوك العربية في الدلالة على المعاني، حيث يختص اللفظ الواحد في الغالب بالمعنى الواحد. وأحيانا تتعدد الألفاظ للمعنى الواحد، وأحيانا أخرى تتعدد المعاني للفظ الواحد. قال سيبويه: "اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف

المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين."[8]

أما الوجه الأول، مما ذكره "سيبويه" فنحو الرجل والمرأة، والليل والنهار؛ اللفظ مختلف والمعنى كذلك. وأما الوجه الثاني، فنحو: عَيْر وحِمَار؛ اللفظان مختلفان والمعنى واحد. وهذا ما يسمى في اصطلاح علماء اللغة بالترادف. وأما الوجه الثالث، فنحو: الخال الذي يحتمل معاني كثيرة منها: أخو الأم، والسحاب، والبعير الضخم... إلخ،[9] وهو ما يعرف بالمشرك اللفظي. وقد مثل له "سيبويه" تمثيلا يعرفه أهل العلم بدقائق العربية. جاء في الكتاب: "وجدْتُ عليه من المَوْجِدَة [الحقد والبغض] ، ووجدْتُ إذا أردْتَ وجدَان الضالة، وأشباه هذا كثير."[10]

ومن هذا النوع الأخير ما يعرف عند علماء العربية بالتضاد؛ وهو أن يدل اللفظ على الشيء ونقيضه في آن واحد، نحو كلمة الأزْر التي تعني القوة أو الضعف، والحَميم الذي يعني الماء البارد أو الحار، والجَوْن الذي يعني الأبيض أو الأسود. والمعنى في كل هذا يعرف من السياق.[11]

أكتفي بهذه المقتطفات لأنني أردت التمثيل لمظاهر ثراء اللغة العربية. ولمن أراد المزيد من الاطلاع أن يعود إليه في مصادر اللغة، على أنه قد يكون كثير من تلك الألفاظ داخلا في باب الأوصاف لا في باب الأسماء؛ كأن يكون لفظ ما صفة لشيء لا اسما من أسمائه.[12]

فهذا احتمال لا يدفع، لكنه لا ينطبق على كل ذلك الكم الضخم من مفردات العربية. بل حتى إن كان كذلك، فإنه لا يعد منقصة من ثراء العربية. إنه يدل على أن العربية كانت في القديم أداة مرنة استجابت بكل طواعية لحاجات أصحابها، في

نقل المعاني والدلالات التي تخص مناحي حياتهم في ذلك الوقت. فأطلقوا ما شاءوا من التسميات والأوصاف على الكائنات الحية والجامدة الواقعة في بيئتهم، كالحيوان والنبات والصحراء والنور والظلام والسحاب والمطر وأدوات الحرب... إلخ. فوفرة مفردات العربية مهما كانت حقيقتها تبقى دليلا قاطعا على سَلاسَتِها وجزالتها واستجابتها ـــ في العهود السابقة ـــ لمن يحسن توظيفها.

وأحب أن ألفت الانتباه، أنه لا ينبغي أن يفهم مما ذكرت أني أدعو إلى العودة إلى استعمال كل الألفاظ القديمة التي عبرت بها العرب عن حاجاتها في الأزمنة الغابرة؛ لأن معظم ذلك كان صالحا لمقتضيات حياتهم في بيئتهم وزمانهم، وأنه لم يعد صالحا لحياتنا في عصرنا. وإنما رمت من ذلك أن نكون في مستوى أسلافنا، من القدرة على التحكم في لغتنا العربية، لاستعمالها في ما تقتضيه حياتنا، في جوانبها المادية والمعنوية. فإنها قادرة على ذلك، كما كانت في العصور الزاهية للحضارة العربية الإسلامية، أيام كانت بغداد ـــ عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك ـــ مركزا للإشعاع الحضاري والثقافي. وكان الناس، من مختلف الأجناس، إذا أرادوا الانتماء إلى الحضارة انتسبوا إلى العرب، حتى قيل من لم ير بغداد فكأنما ما رأى الناس ولا رأى الدنيا، تماما كما قال اليوم عن العواصم الغربية.

والآن نتساءل، لماذا لم تقف اللغة العربية عائقا في طريق الحضارة العربية آنذاك؟ كما يتهمها اليوم ضعاف النفوس من يتامى فرنسا وبريطانيا في الوطن العربي. وما أكثرهم !

3. المستوى الصرفي

هذا جانب آخر مشرق من جوانب اللغة العربية، لو أنا قدّرنا شأنه وعرفنا أهميته، فهو بمثابة **نبع رقراق** ـــ ليس لجميع اللغات مثله ـــ **تغترف** منه العربية مادتها الأساسية، أعني الأبنية المفردة التي تتألف منها الجمل، وبالجمل نعبر ونتكلم، وبها يتم التفاهم والتواص بين الأفراد **والمجتمعات.**

لا أريد أن أتكلم بالتفصيل في علم التصريف، بل أريد فقط أن أشير إلى فضله وشرفه في اللغة العربية، لذلك أقتطف نماذج فقط من مواده الثمينة، التي توفر للغة العربية مرونة متناهية في التعبير، وقدرة فائقة على أداء المعاني المتباينة والأفكار المختلفة. ويحسن في هذا السياق أن أورد كلاما للإمام "أحمد بن فارس" المرجوة له الرحمة، إذ قال "أما التصريف فإن من فاته عمله فاته المعظم، لأنا نقول: وَجَدَ، وهي كلمة مبهمة، فإذا صرفنا أفصحت **فقلنا في المال وُجْدًا، وفي الضالة وِجْدانًا، وفي الغضب مَوْجِدَةً، وفي الحزن وَجْدًا، وقال الله جلّ** ثناؤه: {وأمّا القَاسِطُون فكانوا لِجهنّم حطبًا}،[13] وقال: {وأقسطوا إنّ الله يحبُّ المُقسطين}.[14] كيف تحول المعنى بالتصريف من العدل إلى الجور.[15] **أراد** ـــ رحمه الله ـــ تبيين مزية التصريف في تغيير المعنى وتحويله من وجه إلى وجه، عن طريق تحوير طفيف في بنية الكلمة. وذلك كما في قول الله تعالى (القاسِطُون)، وقوله (المقسطين). إذ جعل القاسطين حطبا لجهنم، ثم أمر بالإقساط وصرح بحبه للمقسطين. وسرّ هذا الاختلاف في **المعنى** ـــ رغم كون الكلمتين من مادة واحدة ـــ يرجع إلى البنية الصرفية؛ فـ **(القاسطون) من** قَسَطَ، بمعنى ظلم وجار، و(المُقسِطِين) من أقْسَطَ

بمعنى عَدَلَ وأنصف. فهذه مرونة لغوية ما بعدها **مرونة.**

نجد مثل هذه المرونة وهذه الطواعية في كثير من المسائل الداخلة في باب التصريف، أجتزيء بأمثلة منها للكشف عن الطاقات التعبيرية الكامنة في هذا **الجانب من اللغة** العربية.

أ- الاشتقاق

من أهم ميزات اللغة العربية أنها لغة اشتقاقية، ومعنى ذلك أن بعض أبنيتها يؤخذ من بعض، فمن الجذر الواحد يمكن تشكيل كلمات كثيرة على هيئات وأوزان متباينة لتأدية ضروب من المعاني. وفي هذا ما فيه من الطواعية في **أداء المعاني ونقل الدلالات، الأمر الذي قد لا** يتوفر في غيرها كاللغات الهندوأوروبية التي تعتمد على ظاهرة اللصق، وهي لا تصل إلى ما في العربية، في هذا المستوى، من التصرف في الصيغ والأبنية. قال الدكتور محمد خير الحلواني: "واللغة العربية أكثر لغات العالم تصرفا **واشتقاقا، فمن الجذر: "علم" نشتق الأفعال: علم، وأعلم، وعلّم، وتعلّم، واستعلم، وتعالم،** وما تتصرف إليه من أفعال مضارعة، وأفعال أمر، وتشتق منها الصفات الآتية: عالم، ومعْلُوم، وعليم، وعلاَّم، ومعلّم، ومتعلِّم، ومستعلِمٌ، ومستعْلَمٌ عنه، ومتعالِمٌ، ومعْلَم، وهذا التصرف لا **تقوى** عليه لغة أخرى من لغات العالم المعاصرة، لأن معظمها يعتمد ظاهرة اللصق أكثر من اعتماده ظاهرة التصريف".[16]

ب- دلالات الصيغ المزيدة في الأفعال

كثيرا ما نجد في النصوص الفصيحة أفعالا تشتمل على حروف زائدة على حروفها الأصلية. وذلك يعني أن المتكلم بالعربية يلجأ إلى زيادة حرف أو أكثر في الفعل قصد التعبير عن معنى جديد فرعي يضاف إلى معناه الأصلي، لم يكن له قبل دخول حروف الزيادة فيه، وإذا جرد منها بقي الفعل **محتفظا بمعناه الأصلي. وذلك كالذي نجده في** اسْتَرْحَمَ واسْتَغْفَرَ، الدالين على طلب الرحمة والمغفرة، الذي لا نجده في الصيغة المجردة رَحِمَ وغَفَرَ. ومثل كَسَرَ بالتخفيف، وكسَّر بتضعيف العين الذي أفاد معنى المبالغة والتكثير. ونحو هذا كثير جدا في اللغة العربية،[17] وهو ميزة لا تقل أهمية عن سابقتها في أداء المعاني، ونقل الأفكار إلى الغير بكل وضوح.

ج- التعبير عن القلة والكثرة (الإفراد والتثنية والجمع)

للغة العربية في هذا الجانب ميزة بارزة يندر مثلها في غيرها. فهي تتوفر على ما يُعبَّر به عن **المفرد في حال التكلم والخطاب؛ خطاب المذكر** وخطاب المؤنث، وما يعبر به عن الغيبة للمذكر والمؤنث. وفيها التعبير عن المثنى، وهو لا يوجد في بعض اللغات كالفرنسية التي تيمت كثيرا من أبناء العرب. وهي، وإن كانت في عيون متيميها عشيقة فاتنة، فقد عَمُوا أن يروا أن جمالها ليس في ذاتها، وإنما هو مما عملته فيها أيدي أصحابها وعقولهم، فإن الثقافة ـــ واللغة عنصر منها ـــ هي كل ما صنعته يد الإنسان وعقله في البيئة الاجتماعية.

كما تتوفر العربية على ألوان شتى للجمع يندر نظيرها في اللغات المعروفة. فلا يوجد في الفرنسية مثلا إلا المفرد (singulier)، **والجمع** (pluriel) هكذا بالإطلاق دون قيد؛ ليشمل كل ما زاد على

الواحد مذكرا كان أم مؤنثا. وأنت لا تعرف هذا الجمع فيها إلا بأداة (article) تتقدم على الكلمة الدالة على الجمع، ولاحقة مثل (s) في آخر الكلمة، أو (aux) في آخر بعض الكلمات.

أما العربية التي صارت توصف بالجمود، في أيامنا، حتى من طرف الكثير من أبنائها، ففيها جموعٌ كثيرة؛ لكل منها ما يناسبه أو قلْ ما وضع له، ولكل منها استعماله الخاص. وهذا يدل على مرونة العربية وطواعيتها، كما يدل على دقتها؛ ذلك أن المتكلم بالعربية تتيح له لغته اختيارات كثيرة، من ألوان الجموع، ينتقي منها ما يناسب المعنى الذي يعبر عنه.

ففيها جمع التكسير بنوعيه[18] ـــ يستعمل غالبا لجمع ما لا يعقل ـــ جمع القلة، مثل: أَبْحُرٍ بوزن أَفْعُلٍ، جمع بحرٍ. وجمع الكثرة، مثل: سُورٍ بوزن فُعَلٍ، جمع سورة. وقد كانت العرب في القديم تحسن التعبير بجميع الصيغ الخاصة بهذين الجمعين دون معرفة هذه المصطلحات التي وضعت لاحقا في القرنين الأول والثاني الهجريين.

وفيها الجمع السالم بنوعيه: جمع المذكر السالم وما يلحق به، وجمع المؤنث السالم وما يلحق به. وفيها اسم الجمع؛ وهو ما دل على الجمع لكن لَفْظَهُ ليس على واحدة من صيغ الجمع المعروفة، نحو: إبل، وخيل ورَكْب وسَفْر. وفيها اسم الجنس الجمعي الذي يدل على معنى الجمع كما يدل على معنى المفرد، لأنه يدل على الماهية المجردة للشيء، دون إرادة فرد معين منه؛ نحو: نَخْلٍ، وتمْرٍ، وعَرَبيٍّ وإنجليزي... إلخ.[19]

4. التعبير عن الزمن

قد يجد أعداء العربية في هذا الجانب منفذًا للطعن فيها واتهامها بالقصور؛ إذ لا يرون في العربية إلا ثلاثة أزمنة هي الماضي والحاضر والمستقبل. وفاتهم أن يروا أن صيغتي (فَعَلَ) للماضي،

و (يَفْعَلُ) للحال والاستقبال قد يعرض لهما من معاني الجهة، بتعبير الدكتور "تمام حسان" ما يجعل كلا من الأزمنة الثلاثة المشار إليها، ينطوي على أزمنة كثيرة ذات دلالة دقيقة جدا، نحو: الماضي البعيد المنقطع، ومثاله كان يفعل. والماضي القريب المنقطع، ومثاله: كان قد فعل. والماضي المتجدد، ومثاله: مازال يفعل. والماضي المستمر، ومثاله: ظل يفعل. والمستقبل ومنه المستقبل البسيط، ومثاله: يفعل. والمستقبل القريب، ومثاله: سيفعل. والمستقبل البعيد، ومثاله: سوف يفعل. والمستقبل الاستمراري، ومثاله: سيظل يفعل.[20]

هذا قليل من كثير أوردته للتدليل على ما في العربية من طرق التعبير عن الزمن، في إطار الماضي والحاضر والاستقبال. وأحيي الدكتور تمام حسان الذي لفت الانتباه إلى هذا الجانب، ورد الشبهة على أصحابها، فجزاه الله خير جزاء.

5- المستوى التركيبي

يعد هذا المستوى الوجه المشرق للغة العربية؛ ففيه تظهر براعتها الفائقة في أداء المعاني ونقل الدلالات بكل مرونة وطواعية. إن العارف بأصول اللغة العربية، العالم بأسرارها، المتحكم في أساليبها، يستطيع التعبير عن المعاني الضخمة بأقل ما يمكن من اللفظ. يروي الأستاذ عباس محمود العقاد ـــ رحمه الله ـــ أن

بعض المستشرقين زعموا أن إعجاز القرآن ليس في النظم، وأنهم قادرون على أداء معانيه الضخمة بمثل تراكيبه، قال فسألتهم أن يصف كل منهم جهنم بأقل ما يمكن من اللفظ. فكتب كل منهم فقرة كاملة وصف فيها عرض جهنم وعمقها ولهيبها ودخانها. فلما فرغوا تلا عليهم "العقاد" وصف القرآن لها، في قول الله عزَّوجل : "و يَومَ نَقُولَ لِجَهَنَّمَ هل امتلأْتِ وتقولُ هلْ مِنْ مَزيد"،[21] **فرموا** أقلامهم مفحمين، وهذا دليل على أن العربية عند من يحسن استعمالها، لا يُعْوزه التعبيرُ الجميل الدقيق عن أي شيء مهما دقّ أو عَظُم.

والمزية في ذلك كله هي خاصية هامة تتميز بها العربية؛ وهي ظاهرة الإعراب الذي وإن شاركتها فيه أخواتها الساميات، إلا أنه في العربية أظهر منه في غيرها.[22]

قد يفهم المبتدئون وغير العارفين أن الإعراب هو مجرد حركات في أواخر الكلمات، لا تعني شيئا، وقد سمعت من يقول هذا فعلا! **إن** الإعراب في اللغة يعني الإفصاح والإبانة عن المعنى ، تقول للذي يتكلم بكلام يوميء فيه إيماء، و لا يريد أن يُبين : أعرب عن رأيك، والمعنى أفصح عن رأيك. إن الحركات في أواخر الكلمات هي رموز إلى معان تحتها؛ وذلك راجع إلى تغير المعنى الوظيفي للكلمة في الجملة ، فكلما تغير هذا المعنى استتبع تغيير الحركة في آخر الكلمة فالحركات إذن هي أعلام على **المعاني، فإذا زالت تلك الحركات** ـــ كما يريد لها غير العارفين بطبيعة العربية وأصولها ـــ انطمست معالمها، وشوهت صورتها، ومُسخ كيانها، وتركت كعملاق مقيد لا يقوى على الحركة، نسأل لها الله السلامة من الدعوات الهدامة.

قال الإمام أحمد بن فارس: "فأما الإعراب فبه تميز المعاني ويُوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلا لو قال : "ما أحسن زيد" غير معرب..... لم يُوقف على مراده ، فإذا قال : مَا أَحْسَنَ زيدًا أو ما أَحْسَنَ زَيْدٌ، أو: مَا أَحْسَنُ زَيْدٍ؟ أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده."[23] نلاحظ أن كلمات التركيب هي نفسها في الأمثلة الثلاثة، وترتيبها واحد، لكن المعنى مختلف من مثال لآخر، والمزية في ذلك هي للإعراب. فكلمة (زيد) في المثال الأول منصوبة، وفي الثاني **مرفوعة، وفي الثالث مجرورة، لأن المعنى في الأول تعجب، وفي الثاني نفي، وفي الثالث** استفهام.

وهكذا نرى أن تغير المعنى الوظيفي **للكلمة** اقتضى تغيير الحركة الإعرابية في آخرها؛ لأنها ترمز إلى ذلك المعنى وتشير إليه، ولَوْلاَ هذا الذي ذكرته لَمَا أمكننا أن نفهم قول الله تعالى فهما صحيحا، في هذه الآية : "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ **مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ** ،"[24] إن العارف بالعربية يدلك على أن لفظ الجلالة قد أدى وظيفة المفعولية؛ وذلك لأن النصب في آخره علامة تميزه وترشد القارئ أو السامع إلى معرفته، سواء أتقدم على الفاعل أم تأخر عنه.

وهذا ما لا يوجد إلا في قليل جدا من اللغات كالساميات، وهو فيها دون هذه الدرجة العالية من الوضوح في العربية، أين يلعب **الإعراب دورا** هاما جدا في تمييز المعاني، كالذي رأينا في الآية الشريفة وفي الأمثلة الثلاثة قبلها.

فهذه الخاصية الهامة قد أكسبت العربية مرونة كبيرة جدا في تبديل مواقع الكلمات في التركيب، ومنحت المتكلم بها حرية كبيرة في تقديم بعض عناصر التركيب، أو تأخير أخرى **بحسب**

المعنى الذي يريده. الأمر الذي لا يتوفر في كثير من اللغات، كاللغات الأوروبية التي وصفها علماء اللغة بالجمود من هذه الناحية. ففي الفرنسية لا يمكن التقديم و التأخير بين عناصر الجملة بالصورة التي عرفنا في العربية، نقول مثلا: أكْرَمَ محمدٌ عليًا ، ثم نقول : أكرم عليًا محمدٌ ، ثم نقول عليا أكْرَمَ محمدٌ؛ حيث نهتدي بالحركات التي هي سمات إعرابية إلى معرفه الفاعل من المفعول، سواء تأخر المفعول به عن الفعل والفاعل أم توسط بينهما أم تقدم عليهما، لأن الفتحة في آخره تميزه وتدل عليه تقدم أم تأخر. أما في الجملة الفرنسية (Paul frappe Pierre)، فإن (Paul) هو الفاعل، و (Pierre) مفعول به، ويجب أن تلتزم هذا الترتيب، فإذا قدمنا (Pierre) صار فاعلا وتغير معنى الجملة تماما، لأن الفرنسية خالية من ميزة الإعراب التي تتمتع به العربية، ورتب الكلمات فيها جامدة لا تقبل التقديم أو التأخير.

وهذه الميزة التي نجدها في التقديم والتأخير، في الإبانة عن المعنى، نجدها أيضا في الحذف والزيادة، والحمل على المعنى فقد عقد لها ابن جني بابا واسعا من كتاب "الخصائص". من أمثلة الحذف عند وجود الدليل دون الإخلال بالمعنى، حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كما في قوله عزوجل: "واسْأل القَرْيَةَ التِي كُنّا فِيهَا."[25]

والمعنى وَ اسْأل أهْلَ القَرْيةِ التي كنا فيها. وغير هذا كثير جدا في القرآن الكريم ، والفصيح من كلام العرب منظوما ومنشورا. لا أطيل الكلام فيه لأنه ليس من غرض هذه الكلمة المختصرة، ولمن شاء الاطلاع عليه أن يعود إليه في مصادر اللغة العربية، كالخصائص.[26]

من كل ما تقدم نعلم أن اللغة العربية قد تغير حالها عما كانت عليه في عهد الفصاحة، وصفاء النحيزة العربية ، أيام كان العرب أمة عاملة فاعلة، لا جامدة خاملة. فهي اليوم تنام ـــ بالمصطلح الحديث ـــ **على طا**قات إبلاغية، كامنة في مستوياتها الأربعة التي استعرضت نُتَفًا منها . غير أنها نائمة بنوم أصحابها؛ **إن** استيقظوا تفجرت بالدّر الكامن في أحشائها، ولا عجب فقد حظيت بعناية الخالق تبارك وتعالى، ووصفها بالبيان، إذ قال : "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِين نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قَلْبِكَ لِتكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عربي مُبِينٍ. "[27] هذا اللسان الذي وصفه الله تعالى بالبيان، صرنا اليوم نصفه بالْعَيِّ والعَجْز ، وهما من صفاتنا **نحن لا من صفات لغتنا.**

علمنا مما تقدم أن اللغة العربية تتوفر ـــ **من طرق التع**بير وأدواته، ووسائل البيان ـــ على ما لم يكتب لغيرها من اللغات التي تعد حاليا، من اللغات الراقية، مع كثير من التحفظ على هذه الكلمة؛ ذلك لأن الرقي والازدهار اللذيْن توصف بهما بعض اللغات، في العصر الحديث، هُما في الحقيقة رقي الشعوب وازدهار **الأمم، لا رقي اللغات** وازدهارها، وليس لمعترض أن يعترض الآن بالقول إن الأمم المتقدمة المتحضرة، كان لها ذلك لامتلاكها لغات راقية، فهذا حكم خاطئ، يقوم على نظرة قاصرة ؛ فالواقع أن القضية نقيض ذلك، إنما الفضل في اللغات المتطورة يعود إلى الشعوب الناطقة بها، فهي شعوب حية متطورة، أرادت الحياة وسعت لها سعيها. وبعبارة أقرب إلى الإيجاز، أقول إن رقي اللغات معلق أساسا برقي أصحابها، ليس **العكس. فإن الأمم والشعوب التي تاقت إلى** الحياة الكريمة وتعلقت بها، أخذت بالأسباب

الكفيلة بذلك وعملت بها، فتطورت وازدهرت، وانعكس ذلك كله على لغاتها فارتقت وازدهرت، ولنا الشاهد على هذا من الواقع.

إذا كانت اللغة الإنجليزية تعد اليوم لغة العلم والتكنولوجيا، فإن مزية ذلك ليس في اللغة ذاتها، لأن الانجليزية في الحقيقة ما هي **إلا لغة كسائر اللغات المعروفة، بل ترجع** مزيتها إلى الشعب الأمريكي الناطق بها. وأعنى **شعب الولايات** المتحدة، فهو شعب متماسك حي واع، نشيط جاد في العمل مخلص فيه ـــ رغم كونه مزيجا من الأجناس المختلفة ـــ **كما أن الحكومات** الأمريكية المتعاقبة في العصر الحديث، تحترم **العلم وتجل العلماء، وتشجع البحث العلمي** وتنشطه بتوفير الإمكانات المادية اللازمة لتحقيق الاكتشافات العلمية وإنجاز الاختراعات التكنولوجية في الميادين المختلفة، فانعكس ذلك النشاط كله في اللغة الانجليزية حتى طفحت بالألفاظ العلمية والفنية، **وعجت بالمصطلحات** التكنولوجية المعبرة عما أنتجته عقول الأمريكيين، ومن حدا حدودهم في مختلف ميادين الحياة المادية.

أما الأمة العربية فابتليت منذ عدة قرون **بالاستسلام والخمول، والركون والجمود، فركدت** لغتنا وجمدت، في كل جوانب الحياة المادية، على ما كانت عليه قبل عدة قرون. **فما مثل** اللغة العربية وأصحابها، واللغات الراقية وأصحابها، إلا كمثل رجلين أوتيا حديقتين ذواتي **أشجار مثمرة.** وكان أحدهما نشيطا فعالا محبا للعمل، فقام على حديقته خير قيام، فأجرى فيها المياه، وتعهد أشجاره بالسقي والتشذيب، فأورقت وأزهرت وأثمرت، ثم آتت أكلها في أوانه. وكان صاحبه متواكلا خاملا، أهمل حديقته

ولم يدخلها، فجفت أشجاره ويبست أغصانها ولم تثمر.

فعلى من يقع اللوم بعد ذلك، على الأشجار لأنها لم تثمر كغيرها في الحديقة المجاورة، أم على صاحب الأشجار الكسول المتواكل؟

كذلك الشأن نفسه بالنسبة إلى العربية، تخلفت في المجال العلمي والتكنولوجي ـــ في العصر الحديث ـــ عن لغات الأمم المتطورة، بسبب تخلف الأمة العربية، بعد أن ابتليت بالتواكل والإهمال ونبذ العمل، وترك الأخذ بأسباب العيش الكريم.

نسأل الله تعالى لأبناء العرب أن يفيقوا من غفلتهم، وأن لا يكونوا " **ككلٍ** على مولاه أينما يوجهه لا يأتي بخير". فاللغة العربية ـــ كما تبين من خلال هذا العرض المختصر ـــ من أحسن لغات العالم، وأنها تحتاج فقط إلى أمة واعية لا تحتقر نفسها، ولا تلوم لغتها على عيب ليس فيها، ولنعلم جميعا أنه من العار أن نمد أيدينا إلى الغرب نطلب السمك في كل يوم، فالواجب يقضي بأن نتعلم صيد السمك لنضمن سمك الغد، كما في المثل الصيني. والصين دولة عظمى، في جميع الميادين، وإنها لم تبن حضارتها لا بالفرنسية ولا بالانجليزية، وإنما بنتها بلغتها، ولغتها ليست مشهورة، بل ولا معروفة إلا داخل الصين، فلنعد نحن أيضا إلى حبيبتنا العربية، ولننفض عنها غبار الزمن.

المراجع والمصادر

1- القرآن الكريم برواية حفص.

2- الإفصاح في فقه اللغة، عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 1978م.
3- الخصائص، ابن جني، أبو الفتح عثمان، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ط) (د.ت).
4- دراسات في علم اللغة، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 1998م.
5- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1963م.
6- ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، أحمد سليمان ياقوت، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د.ط)، 1983م.
7- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، القاهرة، ط:2، 1992م.
8- فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط:2، 1983م.
9-فقه اللغة العربية وخصائصها، إيميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:2، 1986م.
10- فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط:3، 1950م.
11- الكتاب: سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر، تح: عبد السلام محمد هاورن، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط:3، 1983م.
12- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط:2، 1998م.
13- المنصف في التصريف، ابن جني، أبو الفتح عثمان، تح: ابرهيم مصطفى و عبد الله أمين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط:1، 1954م.
14- الواضح في علم الصرف، محمد خير الحلواني، دار المأمون للتراث، بيروت، لبنان، ط:4، 1987م.

الهوامش

[1]- العلق/ 3، 4.
[2]- دراسات في علم اللغة، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د. ط)، 1998 م، ص: 193- 194.
[3]- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1992 م، ص: 157، 178.
[4]- أنظر : دراسات في علم اللغة، كمال بشر، ص: 195.
[5]- دراسات في علم اللغة، كمال بشر، ص 198.
[6]- فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط 3، 1950 م، ص 136.
[7]- انظر: الإفصاح في فقه اللغة، عبد الفتاح الصعيدي، وحسين يوسف موسى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1978. تنظر كل مادة في الباب الخاص بها.
[8]- الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر (ت 180 هـ)،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، ط: 3، 1983 م، ج: 1، ص: 24.
[9]- انظر: فقه اللغة العربية وخصائصها، إيميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 1، 1986، ص: 178.
[10]- المصدر السابق، سيبويه، ج: 1، ص: 24.
[11]- انظر المصدر السابق، إيميل بديع يعقوب، ص: 171.
[12]- انظر: فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: 2، 1983 م، ص: 311.
[13]- الجن/ 15.
[14]- الحجرات/ من الآية 9.
[15]- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابن فارس أبو الحسين أحمد ، ص: 191، 192.
[16]- الواضح في علم الصرف، محمد خير الحلواني، دار المأمون للتراث، بيروت، ط: 4، 1987 م، ص: 151.
[17]- ينظر هذا مفصلا في بابه الخاص من مصادر اللغة، مثل المنصف في التصريف، ابن جني أبي الفتح عثمان (ت 392 هـ)،تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط: 1، 1954 م، ص: 71- 91.
كذلك ينظر اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط: 2، 1998 م، ص: 160 وما بعدها.
[18]- ينظر في هذا مصادر النحو والصرف، كالكتاب، ج: 2، 3.
[19]- ينظر في كل هذا كتب اللغة ككتاب سيبويه، والمنصف لابن جني.

[20]- انظر: ، اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان ص : 245.
[21]- ق / 30.
[22]- ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم ، أحمد سليمان ياقوت، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر/ (د.ط) 1983م ، ص: 05.
[23]- الصاحبي، أحمد بن فارس.: ص 190، 191.
[24]- فاطر / 28 .
[25]- يوسف / 82.
[26]- انظر الخصائص ، ابن جني ، ج :2 ، ص : 362 وما بعدها.
[27]- الشعراء / 191 – 195.